

سُورَةُ يُوسُفَ

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

سورة يوسف عليه السلام وهي مائة وإحدى عشرة آية مكية. سبب نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه على أصحابه زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصت علينا فنزلت، وقيل: هو تسليّة الرسول عما يفعله به قومه، بما فعلت إخوة يوسف، وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن يونس نزلت، ثم هود، ثم يوسف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات الكتاب المعجز ﴿الْمُبِينِ﴾؛ أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى، المبين لما فيه من الأحكام والشرائع، وخفايا الملك والملكوت.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المنعوت بهذه الأوصاف الجليلة ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً، مؤلفاً من هذه الأحرف العربية

التي تعرفونها وتنطقون بها، واستدل جماعة منهم الشافعي وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر، بأن وصف القرآن بكونه عربياً، على أنه لا معرّب فيه، وقالوا: من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، وقال غيرهم: كان للعرب بعض مخالطة، لأهل سائر الألسنة في أسفار لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح، وعلى هذا الحدّ نزل القرآن، فأصولها وإن كانت أعجمية، لكنها اختلطت بكلام العرب فصارت عربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا معانيه، وتحيطوا بما فيه من البدائع، فتعلموا على أنه خارج عن طوق البشر.

﴿ذَنَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾

﴿ذَنَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ﴾ نخبرك ونحدثك من قص أثره إذا اتبعه ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي قصصاً هي أحسن القصص، والمراد مضمون هذه السورة، ووجه أحسنيتها اشتمالها على حال حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وخصب وجذب، وفراق ووصال، وسقم وصحة، وذل وعز، وقد أفادت أن لا دافع لقضاء الله تعالى من قدره، وأن الحسد سبب الخذلان، وأن الصبر مفتاح الفرج وفيه مع بيان الواقع، إيهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من الخلل، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في التوراة مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي هذا القرآن المعجز، الذي من ضمنه هذه السورة ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن ﴿لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ أي عن هذه القصة، لم تخطر ببالك ولم تفرغ سمعك، وهو تعليل لكونه موحى.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِفَى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ شروع في القصة، ويوسف اسم عبري هو ابن يعقوب، وجده الأعلى إبراهيم، أخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ، ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»^(١) وقد اجتمع في يوسف مع ما ذكر من النبوة، حسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورياسة الدنيا، وحيطة الرعايا في القحط والبلاء ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿يَتَابَتِ﴾ أصله يا أبي حذفت الياء فعوض عن الياء تاء التانيث، وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ولذلك لا يجتمعان ولا يقال يا أبتى ﴿إِفَى رَأَيْتُ﴾ أي في المنام، من الرؤيا لا من الرؤية لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ فالرؤيا في المنام، والرؤية بالعين، والرأي بالقلب ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قيل الشمس والقمر أبواه والكواكب أخوته، وتخصيص الشمس والقمر لاختصاصهما بالشرف، وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئناف كأن سائلاً قال: كيف رأيتهم فأجاب بذلك، وإنما أجري مجرى العقلاء في الضمير، لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود، وعبرت الشمس بأبيه، والقمر بأمه، روي ذلك عن قتادة.

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿قَالَ﴾ يعقوب، ﴿يَبْنَئُ﴾ صغره للشفقة لصغر سنه، لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة ولما عرف يعقوب من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٦١.

تعالى مبلغاً جليلاً، وينعم عليه بشرف الدارين، خاف عليه حسد الإخوة، فقال له صيانة ﴿لَا تَقْصُصْ رُءُوسَهُمْ﴾ وحقيقتها أن الله سبحانه، يخلق في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات، علماً على أمور آخر، يخلقها في ثاني الحال، وقيل: هي أحاديث الملك الموكَّل بالأرواح إن كانت صادقة، ووسوسة الشيطان والنفس إن كانت كاذبة، ونُسب هذا إلى المحدثين، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبُّها، فإنها من الله تعالى، فليحمد الله، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله تعالى من شرِّها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»^(١) ﴿عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الذين يخشى غوائلهم، يريد إخوته من أبيه، أما «بنيامين» الذي هو شقيق يوسف، فليس بداخل تحت هذا النهي ﴿فَيَكِيدُوا﴾ أي فيفعلوا ﴿لَكَ﴾ فيحتالوا لإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متيناً لا تقدر على رده، ولا تستطيع دفعه، وليس ذلك من الغيبة المحظورة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ﴾ أي لهذا النوع ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يألو جهداً في إغواء إخوانك، وحملهم على ما لا خير فيه، من إثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد، والذي عليه الأكثر سلفاً وخلفاً، أنهم لم يكونوا أنبياء أصلاً. وذكر ابن تيمية أن الذي يدل عليه القرآن، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ، بل ولا عن أحد من الصحابة خبرٌ بأنَّ الله نبأهم، ولمَّا نبَّهه على أن لرؤياه شأنًا عظيماً، وحذَّره مما حذَّره، شرع في تعبيرها على وجه إجمالي، فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهَبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرؤيا ٣٦٩/١٢ والترمذي رقم ٣٤٤٩.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية لك وعلى وقفه ﴿يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ يختارك لجناب كبريائه، ويصطفيك للنعمة والملك، ومراده عليه السلام إطاعة أبويه وإخوته له، لكنه لم يصرح به حذراً من إذاعته ﴿وَيَعْلَمُكَ﴾ وهو يعلمك ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤيا إذ هي إخبارات غيبية يخلقها الله تعالى في قلب النائم، أو أحاديث المَلَك، إن كانت صادقة، أو النفس والشيطان إن لم تكن كذلك، أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف من تعبير الرؤيا، وإنما عرف يعقوب ذلك بطريق الفراسة ﴿وَيُسِّرُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بأن يضم النبوة إلى الملك، ويجعله تنمة لها، وفي تعليم التأويل إشارة إلى استنبائه لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي، وحاصل المعنى: كما أكرمك بهذه الرؤيا المباشرة الدالة على سجود إخوتك لك، يكرمك بالنبوة والعلم، الذي تعرف به أمثال ما رأيت، وإتمام نعمته عليك ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم، إتمام النعمة على يوسف بالنبوة وعلى آل يعقوب باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ التعبير عنهما بالأب مع كونهما من أجداده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام، وإتمام النعمة لإبراهيم بالنبوة، وباتخاذ خليلاً، وبإنجائه من النار وعلى إسحاق بالنبوة كذلك، وبإخراج يعقوب من صلبه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يفعل ما ذكر لأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء، فيعلم من يستحق الاجتباء، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ فاعل لكل شيء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل على سنن علمه وحكمته.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي في قصتهم ﴿آيَاتٌ﴾ أي علامات دالة على قدرته تعالى وحكمته ﴿لِلْسَّائِلِينَ﴾ لكل من سأل قصتهم أو للطالبيين للآيات المعبرين بها.

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أي شقيقه «بنيامين» ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا ﴾ وإنما قالوا هذا حسداً منهم ليوسف، لما رأوا ميل يعقوب إليه، وكثرة شفقتة عليه، ولم يُشَرِّعْ مع أن المخبر عنه به اثنان، لأن أفعال التفضيل لا يُفَرِّقُ فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكَر وما يقابله، وجيء بلام الابتداء، لتحقيق مضمون الجملة وتأكيد، أي كثرة حبه لهما، أمرٌ ثابت لا شبهة فيه ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي والحال أننا جماعة، قادرون على الحل والعقد، أحقاء بالمحبة من الصغيرين، والعصبة والعصاة: العشرة فما زاد، سُمُّوا بذلك لأن الأمور تتعصَّب بهم أي تُشدُّ فتقوى ﴿ إِنَّ أَبَانَا ﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما ﴿ لَفِي ضَلَالٍ ﴾ أي خطأ في الرأي^(١)، وذهاب عن طريق العدل ﴿ مُبِينٍ ﴾ ظاهر الحال واضح، وإنما أحبه عليه السلام أكثر منهم، لما رأى عليه من مخايل الخير ما لم يرَ فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا، ولا لوم على الوالد، في تفضيله بعض ولده على بعض في المحبة، لمثل ذلك، وأن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر، ظنَّ أبناؤه أنَّ ما كان منه عن اجتهاد، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهد يخطئ ويصيب.

﴿ أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ آطَرِحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيِّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِيهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

(١) لم يريدوا الضلال في الدين، الذي يقابل الهدى والإيمان، إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ واضح لإيثاره يوسف وأخاه عليهم في المحبة، فتنبه والله يربعاك.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قال بعضهم مخاطباً للباقيين: اقتلوا يوسف، ويروى أن القائل شمعون، والباقون كانوا راضين ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ التنكير للإبهام، أي أرضاً مجهولةً بعيدة عن العمران ﴿يَخْلُ﴾ يخلص ﴿لَكُمْ وَجْهٌ أَيْكُمْ﴾ فيقبل عليكم بكلية، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِي﴾ من بعد قتله وطرحه ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ بالتوبة عما جئتم به من الذنب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ وإنما لم يذكر أحدٌ منهم باسمه، سترأ على المسيء، وكلٌ منهم لم يخل عن الإساءة، وإن تفاوتت مراتبها، أظهره في مقام الإضمار، استجلاباً لشفقتهم عليه، واستعظاماً لقتله ﴿وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ أي في قعره وغوره، وغيابة الجب: قعره ﴿يَلْقَظُهُ﴾ يأخذه ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي بعض الذين يسرون في الأرض، قال الهروي: الغيابة في الجب شبه كهف في البئر فوق الماء، يغيب ما فيه عن العيون ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بمشورتي لم يبت القول تأليفاً لقلوبهم، وتوجيهاً لهم إلى رأيه.

﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَتَّابَانَا﴾ خاطبوه بذلك تذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف، ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه، في حفظه منهم، حين أحسَّ منهم بآمارات الحسد ﴿مَا لَكَ﴾ أي أي شيء لك ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾؟ أي لا تجعلنا أمناً ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا، ونحن بنوك، وهو أخونا ﴿وَإِنَّا

لَهُ لَتَصِحُّونَ ﴿١٢﴾ يريدون له الخير، ومشفقون عليه، ليس فينا ما يخلُ بذلك، والاستفهام «بِمَالِكَ» فيه معنى التعجب، والكلام ظاهر في أنه تقدم منهم سؤال أن يخرج يوسف معهم، فلم يرض أبوهم بذلك.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَع﴾ أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذ، قال الراغب: إن الرتع حقيقة في أكل البهائم، ويُسْتَعَار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿وَيَلْعَب﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما، وإنما قالوا ذلك، لتحقيق ما راموا من استصحاب يوسف، بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه، أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد، من إيراد الجملة اسمية، وتحليتها بـ«يَنْ» واللام، وإسناد الحفظ لكلهم وتقدير «له» على الخبر، احتيالاً في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي يحزني ذهابكم به لشدة مفارقتي عليّ، وقلة صبري عنه، ومع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وقد لقنهم العلة، وكما قيل: «إن البلاء موكل بالمنطق»^(١) ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذْ لَخَسِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾

(١) هذا من الأمثال العربية المشهورة، يعني أن نطق الإنسان يكون سبباً لوقوعه في المصيبة والكرب فكان يعقوب عليه السلام لقنهم حجة في الكيد ليوسف.

﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أننا جماعة أقياء أشداء، جديرة بأن تعصب بنا الأمور العظام ﴿ إِنَّا إِذَا لَخِيسِرُونَ ﴾ أي لهالكون ضعفاً، مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار، وإنما اقتصرنا على جواب خوف يعقوب من أكل الذئب، لأنه هو السبب القوي في المنع وكانوا يشوقون يوسف لأن يذهب معهم، فرجا هو أيضاً أباه ليذهب معهم، وقد كان يعقوب يحب تطيب قلب يوسف، فاغترّ بقولهم وأرسله معهم.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنِجَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥).

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا ﴾ أي عزموا عزمًا مصممًا على ﴿ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَبَتِ الْجَبِّ ﴾ هي بئر بين مصر ومدين فأتوا إلى البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لما عزموا تلطيخه بالدم احتيالاً لأبيه فدلوه فيها ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أي أعلمناه عند ذلك، تبشيراً له بما يؤول إليه أمره، وإزالةً لوحشته، وتسليّةً له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام ﴿ لَتُنِجَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ أي لتخلصنّ مما أنت فيه من سوء الحال، ولتحدثنّ إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسف لتباين حالك هذا، وحالك يومئذ، بعلو شأنك، وكبرياء سلطانك.

﴿ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (١٦).

﴿ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً ﴾ آخر النهار، من بعد صلاة المغرب إلى العشاء ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين بالكذب، يذرفون الدموع الكاذبة^(١)، ولمّا سمع بكاءهم فرح يعقوب، وقال: ما لكم يا بنيّ وأين يوسف؟.

(١) هذه دموع التماسيح، دبّروا مكيدة لأخيهم يوسف المسكين، ثم جاؤوا في المساء يذرفون عليه الدموع، وهي دموع كاذبة، واختاروا المساء لأن الليل أخفى للويل كما =

﴿ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ
الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١٧).

﴿ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي متسابقين في العدو والرمي
﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا ﴾ أي ما نتمتع من الثياب والأزواد وغيرهما مما
يلزم للرعاة ﴿ فَآكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أي فافترسه الذئب، عقيب ذلك، فكأنهم
قالوا: لم تقتصر في المحافظة عليه، بل تركناه في مأمن عند متاعنا، وما
فارقناه إلا ساعة يسيرة، فكان ما كان ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدق لنا في
هذه المقالة، الدالة على عدم تقصيرنا في أمره ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أي
ولو كنا عندك وفي اعتقادك موصوفين بالصدق والثقة، لاتهامنا في يوسف
لشدة محبتك إياه.

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨).

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي جاؤوا فوق قميصه بدم ﴿ كَذِبٍ ﴾ أي
كاذب، وُصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب. والمعنى: أتوا بدم
كذب فوق قميصه، وكان ذلك الدم دم سخلة ذبحوها، ولطخوا بدمها
القميص، كما روي عن ابن عباس ومجاهد، وعن قتادة أنهم أخذوا ظبيةً
فذبحوها، فلطخوا بدمه القميص، ولما جاؤوا به ألقاه على وجهه وبكى،
وقال: تالله ما رأيتُ كالיום ذنباً أرحم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه

= يقال في الأمثال، روي أن امرأة تحاكت إلى شريح القاضي فجاءت تبكي بدموع
سخية، فقال الشعبي: أما تراها يا أبا أمية تبكي؟ فقال له شريح: لقد جاء إخوة
يوسف أباهم عشاءً يكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق،
ولا يتأثر بكاء الباكين!!.

قميصه!! فلما علم كذبهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي زينت وسهلت لكم ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور منكراً، لا يوصف ولا يعرف، وأصل التسويل كما قال الراغب: هو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن، وفي الكلام حذف أي لم يأكله الذئب، بل سَوَّلَتْ وزَيَّنَتْ الخ، وعَلِمَهُ بكذبهم حصل من سلامة القميص، وإنما حزن لما خشي عليه من المكروه، والشدائد غير الموت، وقيل إنما حزن لفراقه وفراق الأحبة مما لا يُطاق ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمرى صبرٌ جميل، والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه العون على الصبر على هذه المصيبة ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ الوصف ذكر الشيء بنعته، وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمراد به هنا الثاني، كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١) بل قيل: إن الصيغة قد غلبت في ذلك، والصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى الجزع، وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر، فما لم تحصل إعانة الله تعالى، لم تحصل الغلبة، فإن قيل: لمَّا ظهر له كذبهم، فلماذا صبر، ولم يبالغ في التفتيش؟ أجيب: إمَّا مَنَعَهُ سبحانه عن التفتيش تشديداً للمحنة، وإمَّا عرف بالقرائن أنه لو بالغ في البحث لأقدموا على إيذائه وقتله، فلمَّا وقع في هذه البلية، رأى أن الأصوب الصبر والسكوت، وتفويض الأمر بالكلية إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ
بِضْعَةٍ وَاللَّهُ عَلَيْهِمَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَجَاءَتْ﴾ التعبير بالمجيء، وإيثاره على المرور والإتيان ونحوهما، إيماء كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند ملك مقتدر ﴿سَيَّارَةٌ﴾ أي

(١) سورة الصافات، آية: ١٨٠.

رفقة مسافرون يسيرون من جهة مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجبّ، وكان في طريق سيرهم المعتاد، وقيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران، فأخطؤوا الطريق فأصابوه ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستسقي لهم ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي أرسلها في الجب ليملاًها، وفي الكلام حذف، أي فأدلى دلوه فتعلق بها يوسف فخرج ﴿قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه ورفقته، كأنه نادى البشرى وقال تعالني فهذا أوانك، حيث فاز بنعمة عظيمة، والتنوين في غلام للتفخيم لأنه كان من أحسن الغلمان، ﴿وَأَسْرَوْهُ يَضَعَةً﴾ أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الناس، ليبيعوه بمصر متاعاً كالبضاعة وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْهُ يَضَاعَةً﴾ يدل على أن المراد أنهم أخفوه لأجل البضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد وأصحابه، لا بأخوة يوسف كما زعمه البعض ﴿يَضَاعَةً﴾ أي أخفوه بضاعة أي متاعاً للتجارة، والبضاعة قطعة من المال تعد لل التجارة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه إسرارهم، وصرّح غير واحد أن هذا وعيد لأخوة يوسف، على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم، وجعلهم عرضة للابتلاء والابتذال، بالبيع والشراء، حين احتاجوا إلى السفر لمصر من أجل الميرة.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ الضمير المرفوع للسيارة، بمعنى باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي نقص، وهو مصدر أريد به اسم المفعول، أي منقوص، وقيل: حرام لأنه ثمن الحر ﴿دَرَاهِمَ﴾ أي لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، وكُنِيَ بالعدّ عن القلة، قيل كانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُوا﴾ أي البائعون ﴿فِيهِ﴾ في بيع يوسف ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ من الراغبين عنه لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي فيه، يُقال: زهد في الشيء زهداً وزهادة تركه، وأعرض عنه.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾ فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمان بخس، والذي اشتراه العزيز كان على خزائن مصر واسمه «قطفير» ﴿ لِامْرَأَتِهِ ﴾ راعيل وهو المروي عن مجاهد، وقال السدي: زليخا وقيل اسمها راعيل ولقبها زليخا ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً، وأحسني تعهده. يُقال: ثوى بالمكان أقام فيه، والمثوى: المنزل، وهذا كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ أي لعله يكفيننا بعض المهمات في ضياعنا وأموالنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي نتبناه، وكان العزيز عقيماً، وتفَرَّسَ في يوسف مخايل الرشد والنجابة، فأراد أن يقيمه مقام الولد، قال ابن مسعود: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرَّسَ في يوسف، فقال لامرأته أكرمي مثواه، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها «يا أبت استأجره» وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما» ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً، يقال: مكَّنه فيه أي أثبته فيه، ومكَّن له فيه أي جعل له مكاناً فيه، ويستعمل كل منهما في مقام الآخر، والمراد بالمكان هنا المكانة، والمعنى: كما جعلنا له فيها مثوى كريماً، جعلنا له مكانةً عاليةً في قلب العزيز، حتى أَمَرَ امرأته بالإحسان إليه، أو جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ لا يرُده شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كله لله، وبيده لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي منتهى اشتداد جسمه وقوته، وهو سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعلم ﴿وَعِلْمًا﴾ أي علم تأويل الأحاديث، وفسر بعضهم الحكمة بالنبوة، والعلم بالتفقه في الدين، وقيل: أراد بالحكمة الحكم بين الناس، وبالعلم العلم بوجوه المصالح، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز، أمره بأن يحكم بينهم، لما رأى من عقله وإصابته في الرأي ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فإنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسناً في أعماله، متقناً في عنفوان أمره، قال الحسن: من أحسن عبادة الله سبحانه في شبابه، آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز، بعدما أمر امراته بإكرام مثواه، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا﴾ إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجاً للقصة، ليعلم السامع من أول الأمر، أن مآلقيه من الفتن والمحن، له غاية جميلة، وأنه محسن في جميع أعماله، لم يصدر منه في حالتي السراء والضراء ما يخلُ بنزاهته، والمرادة: المطالبة برفق، من رَادَّ يَرُودُ: إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطلب الماء والكلاء، وهي مفاعلة من واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومما طلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين، الفعل، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال وقد كانت صادرة من أحد الجانبين، لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر، جعلت كأنها صادرة عنهما، لأن سبب الشيء يقوم مقامه، فكان جماله عليه السلام سبباً

لمراودتها له، ثم كونها في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحد: ما حَمَلَكَ على ما أنت مما لا خير فيه؟ قال: قُرْبُ الوِساد، وطول السَّواد ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي طلبت من يوسف أن يواقعها، والعدولُ عن التصريح باسمها، للمحافظة على السرِّ، وللاستهجان بذكرها، وإضافة البيت إليها ﴿التي هو في بيتها﴾ لما أن العرب تضيف البيوت إلى النساء، باعتبار أنهم القائمات بمصالحه، أو الملازمات له ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ قيل: كانت سبعة، ولذلك جاء الفعلُ بصيغة التفعيل، وقيل: للمبالغة في الإيثاق ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أقبلْ وبادر، فقد تهيأتُ لك، وقال الكسائي: تعال، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً، مما تدعيني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى أنه منكر، يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لأنه قد شاهد بما أراه الله تعالى من البرهان النير، ما هو عليه في حدِّ ذاته من غاية القبح، ونهاية السوء ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي هو ربي، أي سيدي العزيز أحسن تعهدي، حيث أمرُك بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حَرَمِهِ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز، بالطف وجه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعليل لامتناع والمراد بالظالمين كل من ظلم، وقيل: الزناة، وقيل: الخائنون.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ بمخالطته، أي قصدتها عزمًا جازمًا، بعدما باشرت مباديها من المراودة، وتغليق الأبواب، ودعوته إلى نفسها بطريق القسر، ولعلها قصدت أفعالاً آخر، من بسط يدها إليه، وقصد المعانقة، وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب نحو الباب ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب، ميلاً جبلياً لا يكاد يدخل

تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً، لأنه بريء من ارتكاب الفاحشة، وكذلك بريء من الهمِّ المحرَّم، وإنما عبر عنه بالهمِّ، لمجرد وقوعه في صحبة همِّها، بالذكر بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل، وقد أشير إلى تباينهما حيث لم يفتننا بلفظ واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد همَّا بالمخالطة، أو همَّ كل واحد منهما بالآخر، وصُدِّر الأول بما يقرّر وجوده من التوكيد القسمي ﴿وَلَقَدْ﴾ وعقب الثاني بما يعفو أثره، من قوله عز وجل ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي الحجة الباهرة الدالة على قبح الزنا، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، وقيل، التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، لكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ^(١)، وما ذكره البعض من أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه، زالت الشهوة عنه، أو أنه حلَّ الهميان يريد فعل الفاحشة، ورووا روايات شتى، كلُّها من الأباطيل، تردُّها العقول، ويل لمن لاكها أو سمعها وصدَّقها.

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي: لو كان همُّه كهَمِّها لما مدحه الله، بأنه من عباده المخلصين، ولأنه لو وجد منه أدنى ميل لذكرت توبته، كما كان لآدم، ونوح، وذي النون، وداود عليهم السلام، فعلم بالقطع أنه ثبت في هذا المقام، وجاهد مجاهدة أولي العزم، ذاكراً دلائل التحريم، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبصير، ومثل ذلك التثبت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾

(١) إلى هذا القول ذهب أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ٢٩٥/٥ حيث قال ما نصُّه: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفسَّاق، والذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همُّ البتَّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: «قارفت الذنب لولا أن عصمك الله، وكقول العرب: أنت ظالم إن فعلت هذا، وتقديره: إن فعلت هذا فأنت ظالم، كذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ» اهـ أقول: وهذا هو الحق، وقد أشبعنا البحث تحقيقاً في كتابنا «صفوة التفاسير» وفي كتابنا «قبس من نور القرآن».

الشَّوْءُ ﴿ خيانة السيد، ومقدمات الزنا، من المسَّ بشهوة، والقبلة
 ﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ أي الزنا، لأنه مفرط في القبح، وفيه حجة قاطعة على أنه
 عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية، ولا توجَّه إليه قطُّ، وإلا لقليل:
 لنصرفه عن السوء والفحشاء، وإنما توجَّه إليه ذلك من خارج، فصرفه الله
 تعالى عنه، بما فيه من موجبات العفة والعصمة ﴿إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا
 الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته أي اجتباها،
 وقرأ ابن كثير وأبو عمر بالكسر، أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، فهو
 منتظم في سلوكهم، بقضية الجملة الاسمية، فانحسم مادة احتمال صدور
 الهمُّ بالسوء منه بالكلية.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ
 مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وقوله:
 ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشَّوْءَ﴾ اعتراض جيء به تقريراً لنزاهته عليه السلام،
 والمعنى ولقد همَّت به وأبى هو، واستبقا الباب، أي تسابقا إلى الباب
 الخارجي الذي هو المخرج من الدار، ولذلك وُحِدَ بعد الجمع، في قوله:
 ﴿وَوَغَلَقَتِ الْأَبْوَابُ﴾ لأن إغلاق الأبواب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق
 الجميع، أمّا هربه منها فلا يكون إلا إلى باب واحد، فرَّ منها ليخرج،
 وأسرعت هي وراءه لتمنعه عن الخروج، فتعلقت بقميصه من خلفه
 ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ اجتذبت من ورائه فانقدَّ قميصه، والقُدُّ الشقُّ طولاً
 أي انشق طولاً نصفين ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها وكانت المرأة
 تقول لزوجها: سيدي، ولذا لم يقل: سيدهما ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ وحين رآته
 المرأة خافت التهمة، فسبقت بالقول ﴿قَالَتْ﴾ لزوجها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
 بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ من الزنا ونحوه، أي ليس جزاؤه ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إيهاماً بأنها فرّث منه، تبرئةً لساحتها عند زوجها، وإغراءه بيوسف انتقاماً منه، والمراد بـ ﴿عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ قيل: الضرب بالسوط، وعن ابن عباس القيد، وإنما بدأت بالسجن لأن المحب لا يشتهي إيلاام المحبوب، إنما أرادت أن يُسجن عندها يوماً أو أقل، لا الحبس الدائم، فإنه لا يُعبر بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجعل من المسجونين، كما قال فرعون لموسى: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(١) وقيل: إنها جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها، واستئزال يوسف عن رأيه، في استعصائه عليها بإلقاء الرعب في قلبه.

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢)

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ أي طالبتني بالجماع لا أنني أردت بها سوءاً كما زعمت، وإنما قاله عليه السلام لتزويه نفسه عما أُسند إليه من الخيانة، ودفع ما عرضته من السجن أو العذاب، ولولا ذلك لكتّم عليها ولم يفضحها، وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب، مراعاة لحسن الأدب، مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: هو ابن عمها، وقيل: كان ابن خالها، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة، إلى من هو من أهلها، ليكون أدلّ على نزاهته وأنفى للتهمة عنه، وكان طفلاً في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام، وقد ورد عنه ﷺ: «تكلّم أربعة في المهد وهم صغار: ابنُ ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحبُ جريج، وعيسى ابن مريم»^(٢) ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ أي من قدام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ في قولها أنه يريد بها

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في المسند وابن حبان، والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٧.

الفاحشة، وهي ممانعة تدافع عن نفسها ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها شقت قميصه من قُدَّامه، بالدفع عن نفسها.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فشقته من خلف، وشهادة الطفل الذي أنطقه الله كافية في بيان صدقه، لأنها كانت بتأييد من الله عزَّ وجل، حيث سحر له هذا الطفل وهو في المهد، ليشهد بعفته وصدقه بالحجة الدامغة، وهناك دلائل أخرى كثيرة تشير على صدقه، منها أنه كان مملوكاً، والمملوك لا يتجاسر أن يتسلط على سيده، ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعذُّو هارباً، ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت ولبست أجمل حُلِيِّها، ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة، فلم يروا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذه الجريمة، وغير ذلك، فلما حصلت هذه الأمارات، الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة من المرأة، استحى الزوج وسكت، وعلم صدق يوسف، وكان بليد الحسن، عديم الغيرة.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨).

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ أي السيد عزيز مصر ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي ثوبه قد شقَّ من خلف، تنبَّه وعلم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ أي هذا الأمر وهو المراودة وشق الثوب من وراء ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أي من احتيالكنَّ أيتها النساء ومكركنَّ، وهذا تكذيب لها وتصديق له عليه السلام، وتعميم الخطاب للتنبيه على أن الكيد خلُقَ لهنَّ عريق ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنه ألطفُ، وأعلق بالقلب، وأشدُّ تأثيراً في النفس، قال بعض الصالحين: إني أخاف من النساء، ما لا أخاف من الشيطان، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ

الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ وقال عن النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يوسوس سرقة وخفية، وهنَّ يواجهن به الرجال علناً.

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف، حُذِفَ حرف النداء لقربه وكمال تطفنه للحديث ﴿أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أي هذا الأمر، واكتمه ولا تحدّث به أحداً، فقد ظهر صدقك، ثم التفت إلى المرأة فقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ الذي صدر منك، وثبت عليك ﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من جملة القوم المتعمّدين للذنب، يقال خطيء إذا أذنب عمداً فهو خاطيء، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، والظاهر أن قائل ذلك هو «العزیز» قيل كان رجلاً حليماً، والأصوب أنه كان قليل الغيرة، فلذلك أراد طيَّ بساط الخيانة، فاقتصر على هذا القول، لإخفاء الجريمة، وطمس معالمها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَلْهَى عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ أي جماعة من النساء، روي عن مقاتل أنهن خمس: امرأة الخباز، وامرأة الساقبي، وامرأة البواب، وامرأة السجّان، وامرأة صاحب الدواب ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي أشعن الأمر وأشهرنه في مصر، إغاطة لها، وتشهيراً بعملها القبيح، حيث عشقت خادماً، وعبداً مملوكاً لها ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ أريد به «قطفير» لأنه كان على خزائن الملك، وإضافتهن لها إليه بهذا العنوان، دون أن يصرّحن باسمها أو اسمه، ليظهر كونها من ذوات الجاه والسلطان، فيكون عوناً على إشاعة الخبر، بحكم أن النفوس

إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميل ﴿تُرَوِّدُ فَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي تطلب موافقته إياها، لتنال شهوتها منه، وإيثارهن صيغة المضارع، ﴿تُرَوِّدُ﴾ للدلالة على دوام المراودة، وتعبيرهن بفتاها - يعني عبداها - للهوان، والإشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، قبيح منها مراودة الخدم، فكيف بمن هي سيدة في القصر، وزوجة لعزيز مصر، فمراودتها لغيره لا سيما لعبدها، وتماديها في ذلك، غاية الغي ونهاية الضلال، والفتى من الناس الطري من الشبان، ويطلق على المملوك والخدام، وأطلق على يوسف هنا، لأنه كان يخدمها، فهو مملوكها، وكل ذلك للمبالغة في اللوم ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي شقَّ حُبُّه شَغَافَ قلبها وهو حجابُه فالمعنى: وصل حُبُّه إلى سويداء قلبها فكاد يحترق ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا﴾ أي لنعلمها علماً، فالرؤية قلبية، واستعمالها بمعنى العلم حقيقة، كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الرشد، وبعد عن الصواب ﴿مُيِّنٍ﴾ أي واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٢١).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنَّ وسوء مقاتلتهنَّ، وتسميته مكرراً لكونه خفية منها، كمكر الماكر، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى زيارتها في قصرها ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي هيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق، ورتبت لهن مجلس طعام، وشراب، ومن طريقة القوم، أنهم يتكئون للطعام والشراب والحديث، كعادة المترفين ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه من اللحوم والفواكه ونحوها، وهن متكئات، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنَّ مشغولات بمعالجة السكاكين، وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه،

وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر ﴿أَخْرَجَ عَلَيْنَهُ﴾ أي ابرز لهن، والظاهر أنها لم تأمره بالخروج، إلا لمجرد أن يرينه فيحصل مرامها، وقيل أمرته بالخروج للخدمة ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ﴾ أي فخرج عليهن فرأينه، ﴿أَكْبَرْتُهُ﴾ أي أعظمته، ودهشن عند رؤيته لأنهن رأين الجمال العظيم، بتلك الهيئة الملكية بنور النبوة، فتعجبين ووقعت المهابة في قلوبهن، فنسين أنفسهن ﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بما في أيديهن من السكاكين، وفي التعبير عن الجرح بالقطع، ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جراحهن، ومع ذلك لم يشعرن بذلك ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله سبحانه، عن صفات العجز، وتعجباً من قدرته جل وعلا على مثل ذلك الصنع البديع، ﴿حَاشَ﴾ أصله حاشا فحذف ألفه الأخير تخفيفاً، وهو اسم بمعنى التنزيه ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال والكمال غير معهود للبشر، نفين عنه البشرية لما شاهدن من جماله ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة، من خواص الملائكة، وغرضهن من هذا وصفه بأنه في أقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَادْتُهٖ عَنْ نَفْسِي ۖ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمُرٍهُ لَيْسَجَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ﴾ الخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف، فوضع «ذلك» موضع «هذا» رفعاً لمنزلة المشار إليه، والمعنى: إن كان الأمر كما قلتن، فذلكنَّ المَلَكُ الكريم الخارج في الحسن عن البشرية هو ﴿الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ أي عيرتُنِّي في الافتتان فيه، فهو ذلكن العبد الكنعاني، فالآن قد علمتن من هو؟ وما قولكن فينا؟ ولما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرهما، كشفت لهن بقية سرها فقالت: ﴿وَلَقَدْ زَادْتُهٖ عَنْ نَفْسِي ۖ﴾ حسبما قلتن وسمعتن ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ امتنع طالباً للعصمة، وهو يدل على الامتناع البليغ، وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باعتصامه من الهم

وغيره، والاستعصام بناءً مبالغته، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، ثم إنها بعد أن اعترفت لهن بما سمعته، وأظهرت من إعراضه عنها واستعصامه، ذكرت أنها مستمرة على ما كانت عليه فقالت ﴿وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أَمْرٍ﴾ أي أمر به من مطاوعتي ﴿لَيْسَ جَنْ﴾ أثرت بناء المفعول جرياً على رسم الملوك، وعبرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه ﴿وَلَيْكُونَا﴾ بالمخففة ﴿مَنْ الصَّغِيرَيْنِ﴾ أي الأذلاء في السجن، وإنما بالغت في ذلك، بمحضر من تلك النسوة، لمزيد غيظها لإصراره على عدم بلّ غليلها، ولتعلم يوسف أنها ليست في أمرها على خيفة ولا خفية من أحد، لينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ مناجياً لربه عز وجل ﴿رَبِّ السِّجْنُ﴾ الذي أوعدتني بالإلقاء فيه ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي أثر وأفضل عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من مواداتها التي تؤدي إلى الشقاء، والعذاب الأليم، وهذا الكلام منه مبنئ على ما مر من انكشاف الحقائق لديه، وصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه، وإنما هو والسجن شران، أهونهما السجن، وإنما أسند الدعوة إليهن جميعاً، لأن النسوة رغبته في مطاوعتها، وخوفنه من مخالفتها، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي وإن لم تدفع ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه لديّ، بأن تثبتي على العصمة والعفة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أمل إلى إجابتهن، بحكم الغريزة والقوة الشهوية، وهذا فزع منه إلى ألطاف الله سبحانه، جرياً على سنن الأنبياء والصالحين، في قصر نيل الخيرات، والنجاة من الشرور، على الله تعالى ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون، فالجهل بمعنى السفاهة ضد الحكمة، لا بمعنى عدم العلم.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢٤)

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ دعاءه على أبلغ وجه، وفي إسناد الاستجابة إلى الرب جلّ وعلا، ما لا يخفى من إظهار اللطف به ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ حسب دعائه، بأن ثبته على العصمة والعفة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم، وما انطوت عليه نياتهم.

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُنُهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ (٢٥)

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ ﴾ أي ظهر للعزير وأصحابه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ وهي الشواهد الدالة على براءة يوسف من التهمة ﴿ لَيْسَ جُذُنُهُمْ ﴾ لإرخاء الستر على القيل والقال، وزوجته هي التي أشارت عليه بذلك، وكان مطواعاً لها، زمامه في يدها، تقوده حيث شاءت، روي أنها لما يئست من يوسف عليه السلام، قالت للعزير: إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ قَدْ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ، يخبرهم بأني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فأرى أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث، فحبسه إرضاء لها ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي إلى حين انقطاع كلام الناس، خدعت زوجها وحملته على سجنه، حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم، فلبث في السجن سبع سنين.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٦)

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ﴾ أي اتفق أنه أدخل حينئذ ﴿ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴾ من فتیان الملك، أحدهما ساقيه، والآخر خبازه، روي أن جماعة من أهل مصر،

ضمنوا لهما مالا ليسماً الملك، في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثم إن الساقى نكل عن ذلك، ومضى عليه الخباز فسم الخبز، فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل فإن الخبز مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز كله فأبى، فجره بدابة فهلك، فأمر بحبسهما، فاتفق أن أدخلهما مع يوسف السجن، والظاهر أن دخولهما مصاحبين له، وأنهم سُجنوا في ساعة واحدة ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وهو الساقى ﴿إِنِّي أَرِنِّي﴾ أي رأيتني في المنام ﴿أَعَصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنبا، سماه بما يؤول إليه، لأن الخمر لا تعصر ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ أي تنهش منه ﴿نَبْتَنَا﴾ أخبرنا ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بتأويل ما ذكرنا من الرؤيا ﴿إِنَّا نَرِيكَ﴾ أي إنا نعتقدك ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يجيدون تعبير الرؤيا، لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه، وفضله أو من المحسنين لأهل السجن، فقد كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانه أوسع له، وقال لأهل السجن: اصبروا تؤجروا، فقالوا له بارك الله عليك، ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك!؟.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٧).

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما ﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي لا يأتیکما طعام إلا بيئت لکما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ أي قبل أن يصل إليكما، وكان يقول لهما: اليوم يأتیکما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كذلك، وإنما لم يكتف بتأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله، لأنه أراد أن يخرج عما في عهده من دعوة الخلق إلى الحق، فمهّد قبل الخوض في ذلك مقدمة،

تزيدهما علماً بعظم شأنه، وثقة بأمره، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه، وأورد عليهما ما دلّ على كونه رسولاً من عند الله، واجتهد في أن يدخلهما في الإسلام، ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والمنجمين، بل هو فضلٌ إلهي يؤتاه من يشاء، ممن يصطفيه للنبوّة فقال: ﴿ذَلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل والإخبار عن المغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بالوحي والإلهام، ثم بين أن نيل الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال، فكأنه قيل: لماذا علمك ربك؟ فقول: لأنني تركت ملة الكفرة، والمراد بتركها الامتناع عنها رأساً، لا تركها بعد ملاستها، عبّر به عن ذلك استجلاًباً لهما، لأن يتركا تلك الملة التي هم عليها ﴿وَهُمْ﴾ أهل مصر ﴿بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي على الخصوص دون غيرهم من الكنعانيين الذين هم على ملة إبراهيم.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا أَن تَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني أنه إنما حاز هذه الكمالات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام، وهي الملة الحنيفة وإنما قال ذلك ترغيباً لصاحبيه بالإيمان والتوحيد، وتمهيداً للدعوة، ولذا أظهر أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه ﴿مَا كَانُوا﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿لَنَا﴾ معاصر الأنبياء ﴿أَن تَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء كان، من ملك أو جن، أو إنس، فضلاً عن الجماد، ولا أن نشرك به شيئاً من الإشراف ولو قليلاً ﴿ذَلِكَ﴾ أي التوحيد والإيمان ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي والنبوة، وترشيحه لنا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى الحق، وذلك مع كونه فضلاً عظيماً علينا بالذات ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ كافة بواسطتنا ﴿وَلَكِنَّ﴾

أَكْثَرَ النَّاسِ ﴿المبعوث إليهم﴾ ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يوحدون، عبّر عن عدم التوحيد بعدم الشكر، لأن التوحيد شكرٌ لله عزّ وجل على تلك النعمة، حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد، وقد أعطى سائر الناس مثلنا ولكن أكثرهم لا يستعملون تلك القوى فيما خلقت له.

﴿يَصْصِحِّي السِّجْنِ ءَازِبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾.

﴿يَصْصِحِّي السِّجْنِ﴾ أي يا صاحبي في السجن؛ ناداهما بعنوان الصحبة التي فيها تصفو المودة، وتخلص النصيحة، ليقبلا عليه، ويقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلاً، يتضح به الحق عندهما ﴿ءَازِبَابُ مُتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهما، مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل لأن الناحية يجعلها على تلك الصورة ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ اللَّهُ﴾ أم عبادة الله المعبود بالحق ﴿الْوَحْدُ﴾ المتفرد بالالوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد؟.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله شيئاً ﴿إِلاَّ أَسْمَاءُ﴾ فارغة لا حقيقة لها في الخارج، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ جعلتموها آلهة ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ بمحض الجهل والضلال ﴿مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك التسمية المستتعبة للعبادة ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة تدل على صحتها، وكانوا يقولون: إن الله تعالى أمرنا بهذه التسمية، فرد الله عليهم ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ في أمر العبادة ﴿إِلاَّ لِلَّهِ﴾ عزّ وجل إذ هو الواجب بالذات،

الموجد للكل، والمالك لأمره، ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ﴾ على السنة أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج، وتقتضي به قضية العقل ﴿ذَلِكَ﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿الَّذِينَ أَلْقَيْتُمُ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين فيعبدون أسماء سموها من عند أنفسهم، معرضين عما يقتضيه العقل والنقل.

وبعد تحقيق الحق، ودعوتهما إليه، شرع في تعبير ما استفسراه فقال:

﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقى وإنما لم يعينه، ثقة بدلالة التعبير، وحذراً مما يسوؤه ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ أي سيده ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقي من قبل ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ أي الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي فيقتل ويعلق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، ولما فسر لهما الرؤيا جحدا وقالوا: ما رأينا شيئاً، قال عليه السلام ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وفرغ منه وهو ما يؤول إليه أمركما، والمشهور إن الرؤيا تقع كما تُعَبَّرُ، ولذا قيل: المنام على طائر إذا قُصَّ وقع.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة

في الدلالة على تحقيق النجاة، وهو السرُّ في إثارة ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذي ظنه ناجياً ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر عند الملك ﴿أَذْكُرْنِي﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ سيدك، وصفني له بصفتي التي شاهدها ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي أنسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً يذهل بها عن التذكر، ﴿ذَكَرَ رَبَّهُ﴾ أي ذكر يوسف عند الملك بتقدير المضاف أي ذكر أخبار ربه ﴿فَلَيْتَ﴾ أي فمكث يوسف بسبب ذلك النسيان ﴿فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ البضع: ما بين الثلاث إلى السبع، كما روي عن مجاهد، وقال أبو عبيدة: من الواحد إلى العشرة، والمراد به هنا في أكثر الأقاويل سبع سنين، وهي مدة لبثه كلها فيما صحَّحه البعض، وعن النبي ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن ما لبث»^(١) والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد مما لا بأس به، فقد قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ فلا يُعَاتَب عليه السلام في ذلك، إلا أنه اللائق بمناصب الأنبياء ترك ذلك، والذي جربته من أول عمري إلى الآن الذي بلغته فيه إلى السابع والخمسين أن الإنسان كلما عوّل في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة، وإذا عوّل على الله حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، وإذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، ولما دنا خروج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفرعته، وهي كما قصها القرآن.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾

(١) أخرجه ابن حرير الطبري عن ابن عباس مرفوعاً، وذكره ابن كثير ٤٩٧/٢ وقال: هذا الحديث ضعيف جداً.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ وهو الريان وكان كافراً، ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر ملكاً ﴿إِنِّي أَرَى﴾ أي رأيت، وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ ممتلئات لحماً وشحمًا ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي أكلهنَّ ﴿سَبْعُ عِجَافٍ﴾ أي سبع بقرات مهزولة جداً، عَجَفَ الفرسُ ضَعُفَ، فهو أعجف، وجمع الأعجف عِجَافٌ، روي أنه رأى سبع بقرات سمانٍ، خرجن من نهر يابس، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف، فابتلعت السَّمان، ولم يتبين عليها منه شيء ﴿وَسَبْعُ سُنْبُلَاتٍ خَضْرٍ﴾ قد انعقد حبها ﴿وَأُخْرَى﴾ أي وسبعاً آخر ﴿يَأْمَسُنَّ﴾ قد أدركت ولتوت على الخضر حتى غلبتها، ولم يبق من خضرتها شيء ﴿يَتَأَيَّأُ الْمَلَأُ﴾ خطاب للأشراف من أهل العلم، يروى أنه جمع السحرة والكهنة والمعبرين فقال يا أيها الملأ ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ هذه أي عبروها أو بينوا ما تؤول إليه من العاقبة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي تعلمون علم التعبير، وهي الانتقال من الصورة المشاهدة في المنام إلى ما هي صورة لها من الأمور الآفاقية والآنفسية الواقعة في الخارج، من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته.

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي قال الملأ للملك هي ﴿أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أضغاث جمع ضغث، وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النباتات، ثم استعير للرؤيا الكاذبة، واحتلم رأى في منامه رؤيا، والرؤيا، والحلم عبارة عما يراه النائم مطلقاً، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه، وفي الحديث الشريف: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان»^(١) وإنما قالوا أضغاث أحلام بالجمع مع أن الرؤيا ما كانت

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٠٨/١٠ في الطب، ومسلم رقم ٢٢٦٢ في الرؤيا، =

إلا واحدة، للمبالغة في وصف ذلك بالبطلان، كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس العمائم، ولا يخفى حسن موقع الأضغاث مع السنابل، فله دُرُّ شأن التنزيل، ما أبدع رياض بلاغته!! ﴿وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة وهذا اعتراف منهم بقصور علمهم، مع أن لها تأويلاً.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ٤٥ .

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي يوسف في السجن، وهو الساقى ﴿وَادَّكَرَ﴾ بالدال وأصله إذتكر، أبدلت التاء دالاً وأدغمت، والمعنى: تذكر ما سبق له مع يوسف عليه السلام ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي طائفة من الزمان ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أخبركم به بالتلقي عن عنده علمه، لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها، وعقبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى من عنده علمه في السجن، والخطاب للملك والملا، وكان السجن على ماروي عن ابن عباس في غير مدينة الملك، فأرسل إليه فأتاه فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٤٦ .

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي يا يوسف ووصفه بالصدّيقية وهي المبالغة في الصدق، حسبما شاهده وجرب أحواله، ولكونه بصدد اغتنام آثاره فهو

= وللحديث تنمة، وهي «إذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فينفث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوذ من شرّها، فإنها لا تضرّه».

من براعة استهلال ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك، أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونعم ما فعل، فإن تعبير الرؤيا يختلف باختلاف اللفظ، أي بيّن لنا تفسير هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أي أعود إلى الملك ومن عنده فأنبئهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون فضلك فيطلبوك ويخلصوك من محتتك، وإنما لم يبت القول بل قال لعلي مجارة معه عليه السلام على نهج الأدب، واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين إما لعدم علمهم أو لعدم اعتمادهم.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧).

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على عاداتكم المستمرة، والدأب العادة المستمرة، وقد أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، فأخبرهم بأنهم يواظبون على الزراعة سبع سنين ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب، فالجملة خبرٌ لفظاً أمرٌ معنى، ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ في كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ كيلا يأكله السوس، فإن إبقاء الحبة في سنبلها يوجب بقاءها على الصلاح ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ أي اتركوا ذلك في السنبل، إلا ما لا غنى عنه، من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين، وفيه إرشاد لهم إلى التقليل في الأكل، وبعد إتمام ما أمرهم به، شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهِنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْصِنُونَ﴾ (٤٨).

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد السنين السبع المذكورات ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ الشداد: الصَّعَابُ التي تشدُّ على الناس، أي صعاب على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ من الحبوب المتروكة في سنابلها، وفيه تنبيه على أن أمره بذلك كان لوقت الضرورة، وفيه تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السَّمانَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ تحرزون لبذور الزراعة من الحصن وهو الحرز والملجأ.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿عَامٌ﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشياً عن المدلول الأصلي لها من عام القحط، وتنبيهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق والعام كالسنة لكن كثيراً ما يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب، والسنة فيما فيه الشدة والجذب ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الغيث أي يمطرون، غاث الله البلاد غيثاً أنزل بها المطر أو من الغوث أغاثهم الله: كشف شدتهم، والأول قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ﴿وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ أي ما من شأنه أن يعصر من العنب، والقصب، والزيتون، ونحوها لكثرتها، وقيل: معنى ﴿يَعَصِرُونَ﴾ يحلبون الضروع، وأحكام هذا العام المبارك غير مستنبطة من رؤيا الملك، وإنما تلقاها من جهة الوحي فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا، وأمرهم بالتدبير اللائق، إبانة لعلو كعبه.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ بعدما جاء السفير بالتعبير، وسمع منه ما سمع واستحسنه، وعرف علمه وفضله ﴿أَتُؤْنِي بِهِ؟﴾ حتى أبصره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾

الرَّسُولُ ﴿ وَقَالَ لَهُ إِنَّ الْمَلِكَ يَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ ، فَأَبَى أَنْ يَخْرُجَ حَتَّى تَظْهَرَ بَرَاءَتُهُ ، وَيُعْلَمَ أَنَّهُ سُجِنَ ظُلْمًا ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ يَوْسُفُ لِلرَّسُولِ ﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أَي سِيدِكَ وَهُوَ الْمَلِكُ ﴿ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أَي فَاسَأَلَهُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ شَأْنِهِنَّ وَحَالِهِنَّ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ : فَاسَأَلَهُ أَنْ يَفْتَشَ عَنْ ذَلِكَ ، حَتَّى لِلْمَلِكِ عَلَى الْجَدِّ فِي التَّفْتِيشِ ، لَتَتَبِينَ عَفْتَهُ وَبَرَاءَتَهُ ، فَإِنْ السُّؤَالُ عَنِ الشَّيْءِ مِمَّا يَهِيجُ الْإِنْسَانَ لِلْبَحْثِ ، لِأَنَّهُ يَأْنِفُ مِنَ الْجَهْلِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَتَعَرَّضَ لَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، تَأْدِبًا وَتَكْرُمًا ، وَأَمَّا النِّسْوَةُ فَقَدْ كَانَ يَطْمَعُ بِشَهَادَتِهِنَّ عَلَيْهَا ، وَلِذَلِكَ اقْتَصَرَ عَلَى وَصْفِهِنَّ بِتَقْطِيعِ الْأَيْدِي ، وَلَمْ يَصْرَحْ بِمَرَاوَدَتِهِنَّ لَهُ ، وَقَوْلُهُنَّ « أَطْعَمَ مَوْلَاتُكَ » وَاكْتَفَى بِالْإِيْمَاءِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ رَبِّي يَكِيدُ هِنَّ عَلِيمٌ ﴾ أَرَادَ بِهَذَا أَنْ كِيدَهُنَّ عَظِيمٌ ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، أَوْ اسْتَشْهَدَ بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُنَّ كَدْنَهُ ، الْجَاهِدَ فِي نَفْيِ التَّهْمِ وَاجِبٌ ، قَالَ ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقِفَنَّ مَوَاقِفَ التَّهْمِ » فَلَعَلَّهُ خَشِيَ أَنْ يَخْرُجَ غَيْرَ مُتَّضِحٍ بِرَاءَةِ سَاحَتِهِ مِمَّا سُجِنَ فِيهِ ، حَتَّى لَا يَتَسَلَّقَ الْحَاسِدُونَ إِلَى تَقْبِيحِ أَمْرِهِ وَيَجْعَلُونَهُ سُلْمًا إِلَى حُطِّ قَدْرِهِ ، طَلَبَ السُّؤَالُ عَنْ حَالِهِ ، وَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ جَمَعَ النِّسْوَةَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ مَعَهُنَّ .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ لَهُنَّ ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ مَا شَأْنُكُنَّ؟ وَالْخَطْبُ أَمْرٌ يَحِقُّ أَنْ يَخَاطَبَ فِيهِ صَاحِبُهُ ، وَأَصْلُهُ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَحِقُّ لِعَظَمَتِهِ أَنْ يَكْثَرَ فِيهِ التَّخَاطُبُ ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ ﴾ وَخَادَعْتَهُ ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أَي هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْ يَوْسُفٍ مِيلًا إِلَيْكَ شَيْئًا مِنْ سُوءٍ وَرِييَةٍ؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تَنْزِيهِ لَه تَعَالَى وَتَعْجِيبٌ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ عَفِيفٍ مِثْلِهِ ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ مِنْ ذَنْبٍ بِالْغِنَى فِي نَفْيِ جِنْسِ السُّوءِ عَنْهُ بِالتَّنْكِيرِ وَزِيَادَةٍ مِنْ ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾

أي ثبت واستقر الحق وظهر وتبين بعد خفاء ﴿أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا أنه راودني عن نفسي، قيل: أقبلت النسوة عليها يقررنها تأكيداً لنزاهته وكذا قولها ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ فتأمل أيها المنصف!! هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة، حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها!! «والفضل ما شهدت به الأعداء» ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز فقال يوسف.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في حرمة كما زعمته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب أي لم أخنه وهو غائب عني، فالمقصود كمال نزاهته عليه السلام عن الخيانة واجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي وليعلم أن الله تعالى ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا ينفذه، ولا يسدده بل يبطله، فهداية الكيد مجازاً عن تنفيذه.

ثم إنه عليه السلام أراد أن يتواضع لله تعالى، ويهضم نفسه لثلاث يكون مزكياً لها، وليبين أن هذا بتوفيق الله وعصمته فقال:

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي﴾ أي لا أنزهاها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها، من غير توفيق من الله تعالى، بل إنه بتوفيقه جل شأنه، قاله عليه السلام إبرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ البشرية التي من جملتها نفسي ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ لكثرة الأمر ﴿بِالسُّوءِ﴾ أي بجنسه، مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها في

كل الأوقات والنفس الواحدة الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلهي، كانت نفساً مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب، كانت أمارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي﴾ الجمهور على أن الاستثناء منقطع، أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عني السوء، ولعل الأولى أن يكون الاستثناء من النفس، أي كل نفس أمارة بالسوء، إلا التي رحمها الله عز وجل، وعصمها عن ذلك كنفسه ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة ومبالغ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك، وكون تأثيه في الخروج من السجن، لعدم رضاه بملاقاة الملك، وأمره غامض، ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته عليه السلام، وأنه سُجن بظلم، ليتلقاه الملك بما يليق به، من الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله خالصاً لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ في الكلام إيجاز، أي فأتوا به، فحذف للإيجاز بسرعة الإتيان به، فكأنه لم يكن بين الأمر بإحضاره، وبين الخطاب معه زمان أصلاً، والضمير في ﴿كَلَّمَهُ﴾ ليوسف عليه السلام أي فلما كلم الملك يوسف، وشاهد منه ما شاهد، من الدهاء وحسن منطقته، بما صدق الخبر، وعظيم حسن أدبه، وصبره وثباته، فلذلك رغب أن يتخذه خالصاً لنفسه ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي ذو مكانة، ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء في المملكة.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر، والمعنى: ولّني على أمرها، من الإيراد والصرف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أي مبالغ في المحافظة على

منفعة البلاد ﴿عَلَيْمٌ﴾ بوجوه التصرف فيها، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الكافر، والجائر، وفيه أيضاً دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق، إذا جهل أمره، وما في الصحيحين عن عبد الله ابن سمرة قال: قال ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكُلتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنتَ عليها»^(١) وارء في غير ما ذكر، وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده، ولعلَّ إثاره عليه السلام لتلك الولاية، إنما كان للقيام بما هو أهم من أمور السلطنة إذ ذاك، من تدبير أمر السنين، حسبما فُصل في التأويل.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جعلنا له مكاناً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والتعبير بالتمكين في الأرض، مسنداً إلى ضميره تعالى، من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته، أي مكناً له الأمور، فجلس على سرير الملك، ودانت له البلاد والعباد، وفوض الملك أمره، وأقام العدل في مصر، وأحبّه الرجال والنساء ﴿يَتَّبِعُونَ مِنْهَا﴾ ينزل من قطاعها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها، ودخولها تحت مملكته وسلطانه، فكانها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا، من الملك والغنى وغيرهما ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفيهم أجورهم عاجلاً وآجلاً، ولدفع توهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ١٢٤/١٣ ومسلم رقم ١٦٥٢ في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة.

انحصار ثمرات الإحسان فيما ذكر، من الأجر العاجل، قال على سبيل التأكيد:

﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ﴾ أي أجرهم في الآخرة الذي أعدّه الله لهم، وهو النعيم المقيم الذي لا نفاذ له ﴿خَيْرٌ﴾ لهم أي للمحسنين المذكورين ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ تبّه تعالى على أن المراد بالإحسان، هو الإيمان والثبات على التقوى، الاستفادة من جمع صيغتي الماضي والمستقبل، وفي الآية إشارة إلى أن ما أعد الله ليوسف في الآخرة، أفضل مما أعطاه في الدنيا.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ولما اشتد القحط، وعمّ ذلك جميع البلاد، ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، قال يعقوب عليه السلام لبنيه، بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا له واقصدوه، تشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام، فخرجوا جميعاً غير «بنيامين» وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وأبويه، وصدق ما أخبره الله تعالى عنه في رؤياه، وكان ابتلاء يوسف في الرؤيا، وكان سبب نجاته رؤيا الملك، أي فجاؤوا ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهو في مجلس ولايته، وفي زي ملوك مصر ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوة فهمه، وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ، ولكون همته معقودة بمعرفة أحوالهم، لا سيما في زمن القحط، وكان مترقباً لمجيئهم، لما يعرف من تأويل رؤياه ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي والحال أنهم منكرون له لطول عهدهم، وتباين ما بين حاله في نفسه وزيه، ولاعتقادهم أنه هلك، وحيث كان إنكارهم مستمراً أخبر عنهم بالجملة الاسمية، بخلاف عرفانه إياهم فقد كان محققاً، ولذلك أتى بالجملة الفعلية.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اثْنُوْنِي بِأَخْ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْآلَتَرَوْتَ إِنِّي أُوْفِي الْكَئِلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي أصلحهم بعدتهم من الأمتعة، وأوفر ركابهم بما جاؤوا لأجله من المؤنة والطعام، وأصل الجهاز ما يُعدُّ من الأمتعة للنقلة كعدة السفر، وما تُزفُّ به المرأة إلى زوجها ﴿قَالِ اثْنُوْنِي بِأَخْ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم، كأنه لا يدري من هو؟ وإنما قاله لَمَّا سألوا حملاً زائداً لبنيامين فأعطاهم ذلك، واشترط عليهم أن يأتوا به ﴿الْآلَتَرَوْتَ إِنِّي أُوْفِي الْكَئِلَ﴾ أي أتمه لكم، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾؟ أي والحال أنني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وكان الأمر كذلك ولم يقله لهم بطريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصار على الكيل لأن معاملته معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم وأما الضيافة فليس للناس فيه حق فخصهم لذلك.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ .

﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ من بعد، فضلاً عن إيفائه ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي لا تقربوني بدخول بلادي، وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتياز مرة أخرى، والظاهر أن ما فعله معهم كان بوحى، وإلا فالبرُّ يقتضي أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله سبحانه أراد تكميل أجر يعقوب عليه السلام في محنته، وهو الفَعَّال لما يريد في خليقته.

﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ .

﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنخادعه ونستميله برفق، ونجتهد في

ذلك، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وَإِنَّا لَفَعَلُونَ﴾ ذلك لا محالة ولا نفرط فيه ولا نتوانى.

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا يَضَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٢).

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفَتْيَانِهِ﴾ لغلماناه الكياليين ﴿اجْعَلُوا يَضَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ والمراد بها البضاعة التي اشتروا بها الطعام، والرَّحْلُ: كل شيء يُعَدُّ للرحيل من وعاء للمتاع، وجمعه رحال، كالسهم والسهام، أي اجعلوها في أوعيتهم، وإنما فعل ذلك تفضلاً عليهم، وليرجعوا لرد الأمانة، وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه، كما يؤذن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أي يعرفون حق ردها ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي رجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ فإن معرفتهم لها سبب لعودتهم إلى مصر، لأنهم منزهون عن أكل الحرام، على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بأخيهم حسبما أمرتهم به.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ (١٣).

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ قالوه قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع، أي حكم بمنعه بعد اليوم، إن لم نذهب بأخينا بنيامين، حيث قال لنا الملك: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر ﴿نَكْتَلْ﴾ بسببه من الطعام ما نشاء ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ من أن يصيبه مكروه، فلما قالوا ذلك.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٤).

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتُم في حقه أيضاً ما قلتُم، ثم فعلتُم ما فعلتُم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أفوض الأمر إلى الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ يعني حفظ الله تعالى خير من حفظكم له ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتين، وهذا ميل منه إلى الإذن والإرسال، لما رأى من المصلحة، ولم يشاهد فيما بينهم وبينه من الحسد، وفيه أيضاً من التوكل على الله تعالى.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئِيعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَئِيعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ﴾ أي أوعية طعامهم ﴿وَجَدُوا بِضَئِيعَتَهُمْ﴾ التي كانوا أعطوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ تفضلاً وقد علموا ذلك من دلالة الحال ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم ﴿يَا بَانَا مَا نَبِغِي﴾؟ أي ماذا نبتغي ونطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا؟ الداعي إلى امتثال أمره؟ ﴿هَذِهِ بِضَئِيعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذه بضاعتنا ردها إلينا، بعدما منّ علينا من المنن العظام، ولو كان رجلاً من آل يعقوب لما أكرمنا إكرامه، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب الميرة والطعام من عند الملك لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حسبما وعدناك ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي وسق بعير زائداً على ما أعطيناه سابقاً ﴿ذَلِكَ﴾ ما يحمل أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيلٌ قليل، إشارة إلى ما كيل لهم أولاً، فكانهم قالوا إن ما جئنا به غير كافٍ بنا، فلا بدّ من الرجوع مرة أخرى، ولا يكون ذلك إلا باستصحاب أخينا.

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ بعدما عاينت منكم ما عاينت، ممّا أجرى المدامع ﴿ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أي عهداً موثقاً من الله تعالى، أراد به أن يحلفوا بالله ﴿ لَأَتُنْنِي بِهِ ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتني به ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطبقوا به ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أي عهدهم من الله تعالى حسبما أراد يعقوب ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ ﴾ من طلب الموائمة ﴿ وَكَيْلٌ ﴾ مطّلع ورقيب على ما نقول، يريد به حثهم على مراعاة ميثاقهم، وتحذيرهم من الغدر، بمعنى أنه موكل إليه تعالى، فإن وفيتم جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات.

﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١٧)

﴿ وَقَالَ ﴾ ناصحاً لهم لما عزم على إرسالهم جميعاً ﴿ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا ﴾ مصر ﴿ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ نهاهم عن ذلك، حذراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة عند الملك، فكانوا مظنة لأن يصابوا بالعين إذا دخلوا كوكبة واحدة، وحيث كانوا مجهولين بين الناس، لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى ﴿ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ بيان لما هو المراد بالنهي، وإنما لم يكتف بهذا الأمر، إظهاراً لكمال العناية به، وإصابة العين حق، أثبتها أهل السنة، وهي إنما تكون بتقدير العزيز الحكيم، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن العين حق...»^(١) يعني إصابة النفس بواسطتها، أمر كائن

(١) أخرجه البخاري ٢٠٣/١٠ بلفظ «العين حق»، ونهى عن الوشم، ومسلم رقم ٢١٨٧.

لا شبهة في تحقيقه، وهو كسائر الآثار المشاهدة، نحو النار، والماء، والأدوية، لأن مدار كل شيء المشيئة الإلهية، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وحكمة خلق الله التأثير في العين مجهولٌ لنا، فقد صرحوا بأن الأدعية والرقي من جملة الأسباب، لدفع أذى العين، وقد كان ﷺ يعوذ الحسن والحسين بقوله: «أعيدكما بكلماتِ الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عينٍ لامة»^(١) ومن الدعاء: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، حصنتُ نفسي بالحي القيوم، الذي لا يموتُ أبداً، ودفعْتُ عنها الشؤء بألف ألفٍ لا حول ولا قوة إلا بالله» وليس من شرط التأثير أن يكون بالكيفيات المحسوسة، بل قد يكون التأثير نفسانياً، والذي يدل عليه، أن اللوح الذي يكون قليل العرض، إذا كان موضوعاً على الأرض، قَدَر الإنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً بين جدارين عاليتين، لعجز عن المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط، يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، ولا يمتنع كون هذا التأثير مؤثراً في سائر الأبدان، وأيضاً إن الإنسان إذا تصور أن فلاناً مؤذٍ له، حصل في قلبه غضب فمبدأ ذلك ليس إلا التصور النفساني ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُم﴾ أي لا أنفعكم، ولا أدفع عنكم بتدبيرى ﴿مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً مما قضى عليكم، فإن الحذر لا يمنع القدر، ولم يرد به إلغاء الحذر، كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد أن ما وصَّاهم به تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو امتثال بأمره، واستعانة به، وهربٌ منه إليه ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كل ما آتى وأذر، وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٠٨/٦.

مخلّ بالتوكل ﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد، ودخلوا متفرقين ﴿مَا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ أي ينفعهم أو يدفع عنهم ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من جهته تعالى ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً قضاءه تعالى عليهم، أي ولما فعلوا ما وصّاهم به، لم ينفعهم ذلك شيئاً، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ كائنة ﴿فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي أظهرها ووصّاهم بها، فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكن قضاء حاجة حاصلة في نفس يعقوب، وهي خوف إصابة العين ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بالوحي والنبوة حيث لم يعتقد أن الحذر يمنع القدر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين أي ضمّه إليه في الطعام والسكن روي أنهم لما دخلوا عليه قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسستم، فأكرمهم ثم أضافهم، وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيداً، ثم أنزل كل اثنين بيتاً، فقال: هذا لا ثاني له، فيكون معي، فلما خلا به قال له يوسف: فهل لك من أخ لأمك؟ قال: كان لي

أخ فهلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاً بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل؟ فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير، ولا تعلمهم بما أعلمتك.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ ووفى لهم الكيل، وهياً لهم أسباب السفر ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ المشربة التي كان الملك يشرب فيها، قيل من ذهب وقيل من فضة مرصعة بالجواهر وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال به الحبوب والأولى أن يقال كان شيئاً له قيمة ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، والظاهر أنه لم يباشر بنفسه، بل أمر أحداً فجعلها ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين من حيث يشعر أو لا يشعر، وأمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى مناد ﴿أَتَتْهَا الْعَيْرُ﴾ العير بالكسر: الإبل تحمل الميرة، ثم غلب على كل قافلة لأنها تذهب وتجيء، والمراد أصحابها ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف عليه السلام فلعله أريد بالسرقة أخذهم له عن أبيه على وجه الخيانة، وإلا فهو من قبل المؤذن بناءً على زعمه، والذي يظهر أن هذا التحايل ورمي البراء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام بوحى من الله تعالى، لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الإخوة ﴿وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي على طالبي السقاية المفهوم من الكلام، أي قالوا مقبلين عليهم ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ أي أي شيء ضاع

عنكم؟ والعدول عن قولهم ماذا سرق منكم؟ فيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، فلذا غيِّروا كلامهم، حيث تلطفوا بعد ذلك.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢).

﴿قَالُوا﴾ أي في جوابهم ﴿نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ الصُّوعُ: المكيال وهو السقاية، ولم يقولوا: سرقتموه، أو سُرِقَ امتثالاً للأدب، أي قالوا: ضاع منا مكيال الملك المرصع بالجواهر ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ﴾ من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده، وفيه دليل على جواز الجعالة وضممان الجعل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣).

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم وفيه تعجيب، كأنهم تعجبوا من رميهم بما ذكر، مع ما شاهدوه من حالهم واشتهارهم بالعفة والصلاح، ولذا قالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لنسرق فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي وما كنا نوصف قط بالسرقة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤).

﴿قَالُوا﴾ أي أصحاب يوسف ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي فما جزاء سرقة في شريعتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي في ادعاء البراءة.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥).

﴿قَالُوا﴾ أي الإخوة ﴿جَزَاؤُهُ مَن يُجِدْ﴾ أي أخذ من وُجد الصواع ﴿فِي رَحْلِهِ﴾ بأن يسترَق ويصبح مملوكاً ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي فأخذه جزاؤه، كقولك حق الضيف أن يكرم، فهو حقه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نَجْرَى الظَّالِمِينَ﴾ بالسرقة، تأكيد للحكم المذكور وبيان لقبح السرقة، ولقد قالوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها، وهم عما فعل بهم غافلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف، قيل إن أخوة يوسف لما أقروا أن جزاء السارق أن يستعبد سنة، قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رجالكم، فردوهم إلى يوسف، فأمر بتفتيشها بين يديه، فبدأ ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ بتفتيش أوعية الإخوة العشرة ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لنفي التهمة، روي أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء أخيه قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحو متاعه وجدوا الصواع فيه ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لم يقل منه، قصداً إلى زيادة الكشف والبيان، والوعاء: الظرف الذي يُحفظ فيه الشيء، وكان المراد به هنا ما يشمل الرَّحْلَ وغيره، لأنه الأنسب بمقام التفتيش ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب، ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي صنعنا له لأجل غرضه، فالكيد مستعار للحيلة، وهو من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبيرُ بالحق ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي في حكمه، لأن جزاء السارق في قضائه، إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق سنة، فلم يكن يتمكن من أخذ أخيه ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا حال مشيئته تعالى وإرادته لذلك الكيد، لأنه كان إلهاماً من الله ليوسف،

حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ رفعه أي رتباً كثيرة عالية، من العلم والحكمة، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم، إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧).

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يريدون به يوسف، قالوه كذباً وبهتاناً على يوسف، كما اتهموا أخاه بنيامين، وغرضهم أن عادة هؤلاء السرقة، فعيروه بها عند الغضب ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ﴾ أي أضمر الحزازة التي حصلت له مما قالوا ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً عنهم وحلماً ﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ﴾ منزلة حيث سرقتم أخاكم، وألقيتموه في الجب، وكذبتكم على أبيكم بأنه أكله الذئب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب، بأن الأمر ليس كما تصفون، من صدور السرقة منا، إنما هو افتراء علينا، لم يواجههم بهذا الكلام إنما قاله في نفسه.

﴿قَالُوا يَا أَبَا نَبِيٍّ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨).

﴿قَالُوا يَا أَبَا نَبِيٍّ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي إن أباه كبير في السن، لا يكاد يستطيع فراقه، يتعلل به عن شقيقه الهالك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ فلسنا عنده بمنزلته، من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا

فأتمم إحسانك، فقد عودتنا الجميل والإحسان، يقولون له ذلك استعطافاً واسترحاماً.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا
لَظَلِمُوا﴾ (٧٩).

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي أن نأخذ أحداً بجرم غيره، وأخذنا له إنما هو بقضية فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجبها وقوله: ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ دون من سرق، لتحقيق الحق، والاحتراز عن الكذب في الكلام، والمتاع: اسم لما ينتفع به، وأريد به الصواع، وما أظف استعماله مع الأخذ المراد به الاسترقاق!! ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي إذا أخذنا غيره ولو برضاه ﴿لَظَلِمُوا﴾ في مذهبكم.

﴿فَلَمَّا أَسْتَيْفَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ
الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠).

﴿فَلَمَّا أَسْتَيْفَسُوا مِنْهُ﴾ يسئوا من يوسف وإجابته إياهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة، أي يسئوا يأساً كاملاً، واستيقنوا أن الأخ لا يُرَدُّ إليهم، لما شاهدوه من عوده بالله، ومن تسميته ظلماً ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا عن غيرهم ﴿نَجِيًّا﴾ أي متناجين متشاورين في ما يقولون لأبيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو «روبيل» ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ كأنهم أجمعوا على التناجي فقال منكرأ عليهم ألم تعلموا ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي عهداً وثيقاً، وهو حلفهم بالله تعالى ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا ﴿مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي ما قدمتموه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وقد قلتم: إنا له

لحافظون ﴿فَلَنْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾
 بالانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى
 نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بنيامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم
 إلا بالحق، والمراد من هذا الكلام، الالتجاء إلى الله تعالى.

﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنِ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا
 بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾ (٨١).

﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنِ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدنا من
 ظاهر الأمر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ من سرقة وتيقناه، حيث
 استخرج صواع الملك من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾ وما علمنا أنه
 سيسرق حين أعطيناك الميثاق.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
 لَصَادِقُونَ﴾ (٨٢).

﴿وَسَلِّ﴾ أهل ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر، والمعنى:
 وأرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير
 التي كنا معهم، فإن القصة معروفة فيما بينهم، وكانوا قوماً من كنعان من
 جيران يعقوب ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي
 بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣).

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا
 ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي سهلت وزينت، وهو إضراب عما يتضمنه
 كلامهم من ادعاء البراءة عن التسبب، كأنه قيل: لم يكن الأمر كذلك، بل

زينت لكم أنفسكم أمراً من الأمور، ومكيدة نفذتموها على أخيكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأمري صبر جميل ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ بيوسف وأخيه الذي توقف بمصر، وإنما قال هذا، لأنه لما طال حزنه، واشتد بلاؤه، علم أن الله سيجعل له فرجاً عن قريب، لأنه إذا اشتد البلاء وعظم، كان أسرع إلى الفرج ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي العالم بحالي، الحكيم في تدبيره وتصريفه.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْتَاسِفَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

﴿وَتَوَلَّى﴾ أي أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهة لما جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَكْتَاسِفَى عَلَى يَوْسُفَ﴾ الأسف: أشدُّ الحزن، أضافه إلى نفسه، والمعنى: يا أسفي تعال فهذا أوانك، وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث مصيبة أخيه، لأن مصيبته قاعدة المصيبات وكان آخذاً بمجامع قلبه، ولأن الحزن الجديد، يقوي الحزن القديم، وفي «أسفاً» و«يوسف» تجنيس نفيس من غير تكلف، وهو مما يزيد الكلام الجليل بهجة وحسناً ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ أي بسببه، والبكاء سبب لابيضااض عينيه، فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين، وقلبت إلى بياض وكدر، قيل إنه قد عمي بصره، وقيل: بل عَشِيَ فهو يدرك إدراكاً ضعيفاً، واستدل بالآية على جواز التأسف، والبكاء عند النوائب، ولعل الكف عن أمثال ذلك، لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد روى الشيخان «أنه ﷺ بكى على ولده إبراهيم»^(١)، وأما المنهي عنه فهو ما يفعله الجهلة من النياحة، ولطم

(١) أشار إلى ما رواه البخاري ١٩٣/٣ ومسلم رقم ٢٣١٥ عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ ابنه إبراهيم، فقبله وشمّه، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

الخدود، والصدور، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه، لا يظهره، فعيل بمعنى مفعول.

﴿قَالُوا تَأَلَّه تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (٨٥).

﴿قَالُوا﴾ أي الجماعة من أهله ﴿تَأَلَّه تَفْتَوُا﴾ أي لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذَكَّرُ يُوْسُفَ﴾ تفجعاً عليه، فحذف حرف النفي، لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي، وعلامة الإثبات هي اللام، ونون التأكيد، ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقليل لتفتأن ﴿حَتَّى تَكُوْنَ حَرَضًا﴾ أي مريضاً مشفياً على الهلاك، حَرَض من باب تعب أشرف على الهلاك، فهو حَرَضٌ ﴿أَوْ تَكُوْنَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ من الميتين، أرادوا بذلك منعه عن كثرة الأسف والحزن.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦).

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي﴾ البث أصعب الهم الذي لا يصبر صاحبه عليه، فيبته إلى الناس، أي ينشره، والحزن إذا ستره الإنسان كان همًّا، وإذا ذكره لغيره كان بثًّا، فكأنهم قالوا ذلك بطريق التسلية فقال لهم: إني لا أشكو ما بي إليكم حتى تتصدّوا لتسليتي وإنما أشكو همي وحزني ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ملتجئاً إلى الله، متضرعاً لدى بابه في دفعه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ من لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من رؤيا يوسف أنه لا يموت، حتى يخزّ له أخوته سجداً، تحقيقاً للرؤيا.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧).

﴿يَبْقَىٰ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ أي تعرّفوا وهو من الحسّ، أي تعرّفوا من خبرهما بحواسكم، وقيل التحسّس طلب الخير، وبالجميم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، أي تطلبوا ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي من خبرهما وأمرهما ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه، والرّوح بالفتح: ما يجده الإنسان من نسيم الهوى، يقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعير للفرج، وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ بالله وصفاته، فإن المؤمن العارف لا يقنط من رحمته تعالى أبداً، واستدل البعض بالآية، على أن اليأس من رحمة الله كفر، وجمهور الفقهاء على أن اليأس كبيرة، ومفاد الآية أنه من صفات الكفار، لا أن من ارتكبه كان كافراً.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف بعدما رجعوا إلى مصر، بموجب أمر أبيهم، وأنكر اليهود رجوعهم، وهو الذي تضمنته توراتهم اليوم، ولا يوثق بها لأنها محرّفة على وجه اليقين ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ أي الهزال من شدة الجوع، قالوا ذلك: استرحاماً واستعطافاً ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَلَةٍ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها، وكنى بها عن الرديء فقد كانت بضاعتهم من متاع الأعراب، صوفاً وشعراً ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فأتهم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا أو رداءتها ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بالإيفاء وقبول البضاعة الرديئة، وإنما قالوا تصدّق تواضعاً، وكانهم أرادوا تفضل علينا بذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي يُثيب المحسنين المتصدقين أحسن الجزاء والثواب. روي أنهم لما قالوا ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ وتضرعوا إليه وطلبوا التصدق، أعطوه كتاب يعقوب

عليه السلام، وقد كتب فيه «من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم إلى عزيز مصر، أما بعد: فإننا أهل بيت، موكل بنا بالبلاء أمّا جدي إبراهيم فإنه ابتلي بالنار فصبر، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأمّا أبي إسحق فابتلي بالذبح فصبر، ففداه الله بذبح عظيم، وأمّا أنا فكان لي ابن وكان أحبّ الأولاد إليّ فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عينا من بكائي عليه، وكنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك، وزعمت أنه سارق، وإنّا أهل بيت لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ، وإلا دعوت عليك والسلام». فلما قرأه فاضت عيناه، فقال لهم:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه، منها إفراده عن يوسف وإذلاله، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة وغير ذلك وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لإشراكهما في وقوع الفعل عليهما أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ فهل تبتم عن ذلك؟ ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتموه زمان جهلكم؟ وإنما قال ذلك، نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى، وهو من أرق القلب، فكشف أمره.

﴿ قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْرِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ ﴾؟ استفهام تقرير، ولذلك حُقق بأن دخول اللام عليه، قالوه استغراباً وتعجباً ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ جواباً عن مسألتهم وزاد عليه ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ من أبي وأمي ذكره تعريفاً لنفسه به،

وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالسلامة والكرامة، وبالألفة بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي يفعل التقوى في جميع أحواله، ويق نفسه عما يوجب سخط الله وعذابه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلايا والمحن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أجرهم، وإنما وضع المظهر تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.

﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ عَاشَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١).

﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ عَاشَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضلك علينا بحسن الصورة، وكمال السيرة، وبالعلم والحلم، والصبر والتقوى، وسائر الفضائل ﴿وَلَوْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ المتعمدين للذنوب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك إن الله تعالى أعزك وأذلنا بالتمسكن بين يديك، والخاطيء من خطيء إذا تعمّد فعل الذنب، وفي قولهم هذا الاعتراف بما صدر منهم في حقه مع الإشعار بالتوبة، ولذلك أظهر جوابه بالصفح المغفرة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢).

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا تأنيب ولا لوم ﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لا تثريب عليكم اليوم ولا عتاب، بل أصفح عنكم وأعفو ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعا لهم بالمغفرة ممّا فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب بالقبول.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفَّى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣).

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ القميص الذي كان عليه ﴿فَالْقَوُّهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يأتي إلي وهو بصير ﴿وَأَتَوْفُّ بِأَهْلِكُمُ أَجْمَعِينَ﴾ أي بأبي وأقربائه من النساء والذراري، وفيه دلالة على أنه عليه السلام قد ذهب بصره، وعلم يوسف ذلك بإعلامهم، أو بالوحي، قال الكلبي: كان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً، وقد نموا في مصر، فخرج منها مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة وسبعون على ما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ من مصر، وخرجت من عمرانها منطلقة إلى بلد يعقوب، يقال: فصل من البلد إذا انفصل منه، وكان بينهما مسيرة ثمانية أيام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشم رائحة يوسف^(١) ﴿لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ﴾ أي تنسبوني إلى الفند، وهو الخرف ونقصان العقل من الهرم، وجواب «لو» محذوف تقديره: لصدقتموني.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ﴿٩٥﴾ .

﴿قَالُوا﴾ أي قال من كان بحضرته من ذوي قرابته ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي لفى ذهابك عن الصواب، في إفراط محبتك ليوسف، ورجائك للقاءه، قال قتادة: لقد قالوا كلمة غليظة، لا ينبغي أن يقولها مثلهم لمثله عليه السلام، وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

(١) قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمانية أيام. اهـ. تفسير القرطبي ٢٥٩/٩.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦).

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ قال مجاهد هو «يهوذا» قال لإخوته: قد علمتم أنني ذهبت إلى أبي بقميص الدم، فأنا أفرحه كما أحزنته فتركوه، وجاء البشير من بين يدي العير ﴿ أَلْقَاهُ ﴾ أي ألقى البشير القميص ﴿ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أي وجه يعقوب فأخذه فشمه، ثم وضعه على بصره ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ عاد بصيراً بعد أن عمي، ورجعت إليه قوته وسروره بعد الحزن والضعف ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده، ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، أي ألم أقل لكم لا تياسوا من رحمة الله، وهو الأنسب بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؟ من حياة يوسف وإنزال الفرج.

﴿ قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٩٧).

﴿ قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ طلبوا منه الاستغفار، ونادوه بعنوان الأبوة، تحريكاً للعطف والشفقة، وعللوا ذلك بقولهم ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ أي اسأل لنا المغفرة على ما ارتكبنا في حَقِّ وحق ابنك، إِنَّا تَبْنَا واعترفنا بذنوبنا، ومن حَقٍّ من اعترف بذنبه أن يصفح عنه!!.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٩٨).

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ روي عن ابن عباس أنه أخر الاستغفار لهم إلى السحر، لأن الدعاء فيه مستجاب، وروي عنه أيضاً إلى سحر ليلة الجمعة. رواه الترمذي وحسنه (١).

(١) وروى الحافظ ابن كثير ٥٠٨/٢ أن عمر بن الخطاب كان يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتي فأجب، وأمرني فأطع، وهذا السحر فاغفر لي» فاستمع الصَّوت =

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ روي أن يوسف عليه السلام جهّز إلى أبيه جهازاً، ومائتي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه، فرحل يعقوب عليه السلام بأهله، وساروا حتى أتوا معالم مصر، وخرج يوسف بأربعة آلاف من الجند، ومن العظماء لاستقباله، فتلقوه، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال يا يهوذا: أهذا فرعون مصر؟ قال: لا يا أبت، ولكن هذا ابنك يوسف، خرج بأشراف مصر يتلقاك، فلما لقيه نزلاً وتعانقاً، وبكى سروراً ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي ضمهما إليه حين استقبلوهم، وكان قد أنزلهم في مضرب خيمة، فدخلوا عليه وضمهما إليه، والمراد بهما أبوه وخالته «لياً» والخاله تنزل منزلة الأم لشفتها، كما ينزل العم منزلة الأب ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ وكأنه عليه السلام ضرب في الملتقى خارج البلد مضرباً، فنزلوا فيه فدخلوا عليه، فأواهما إليه، ثم طلب منهم الدخول في البلدة، فهنا دخولان: أحدهما خارج البلدة، والثانية في البلدة ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من القحط، والشدائد، والمكاره قاطبة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ على السرير تكريماً

= فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السّحر في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾.

لهما، فوق ما فعله لإخوته، وهو السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، والرفع النقل إلى العلو ﴿وَحَرُّوا لَكُمْ﴾ أي أبواه وأخوته ﴿سُجَّدًا﴾ أي على الجباه كما هو الظاهر، لأن السجود يكون بعد الخرو، وكان جائزاً عندهم، وهو جار مجرى التحية عندنا، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد من عادات الناس ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ التي رأيته وقصصتها عليك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في زمن الصبا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقاً واقعاً بعينه، كما رأيته في النوم ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ أي أنعم عليّ، والأصل أن يتعدى الإحسان بإلى أو اللام، وقيل الباء بمعنى إلى، وقيل هذا بتضمنين لطف وهو تضمين للإحسان الخفي ﴿إِذَا أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ بعدما ابتليت به، ولم يصرح بقصة الحب حذراً من خجل إخوته ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ لأنهم كانوا أصحاب الماشية، وأهل البدو، أي البادية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أفسد بيننا بالإغواء، وقد بالغ عليه السلام في الإحسان، حيث أسند ذلك إلى الشيطان ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي لطيف التدبير حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وما من صعب إلا وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل، اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور، المدبر لها فإذا أراد شيئاً سهّل أسبابه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته على وجه يقتضي الحكمة. روي أن يعقوب قال ليوسف: يا بني ما أعقك؟ عندك هذه القراطيس وما كتبت حالك إليّ؟ قال: أمرني بذلك جبريل قال: أو تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني، فسأله فقال جبريل: الله تعالى أمرني بذلك، لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ﴾ فهلاً خفتني!! وهذا عذر واضح ليوسف في عدم إعلامه به، لكن يبقى سؤالاً بأن يعقوب عليه السلام، كان من أكابر الأنبياء نفساً، وأباً، وجداً، وكان مشهوراً في البلدان، ثم وقعت له واقعة هائلة في أعزّ أولاده، ويوسف ليس بمكان بعيد، فكيف غمّ أمره، ولم يصل إلى أبيه خبره؟ وأجيب عن ذلك بأنه ليس إلا من باب خرق العادة، واختلف في مقدار المدة بين الرؤيا، وظهور تأويلها، فقيل سبعون سنة، وعن سلمان الفارسي

أنها أربعون سنة، وهو قول الأكثرين، والله أعلم بحقائق الأمور، وروي أن يعقوب أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، في أهنأ عيش، وأحسن حال، فلما حضرته الوفاة أوصى يوسف بدفنه بالشام، إلى جنب أبيه إسحق، فمضى يوسف عليه السلام بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، ولما تم أمره، وعلم أنه لا يدوم إلا الحي القيوم، تافت نفسه إلى المُلْك الدائم، فتمنى الموت، فقال ما حكاه عنه القرآن:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْقِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ أي بعضاً منه وهو ملك مصر
 ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي بعضاً من ذلك، لأنه لم يؤت كل التأويل
 ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ابتداءً على غير مثال سابق
 ﴿ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي ﴾ أي اقبضني ﴿ مُسْلِمًا وَالْحَقْقِي بِالصَّالِحِينَ ﴾
 من آبائي أو بعامة الصالحين من عبادك المؤمنين وتمني الموت حباً للقاء الله تعالى، مما لا بأس به، فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب لقاء الله تعالى أحب لقاء الله لقاءه..»^(١) الحديث. نعم تمنى الموت عند نزول البلاء منهني عنه، ففي الحديث الشريف: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به»^(٢) وقيل: إن يوسف لم يأت عليه أسبوع، حتى توفاه الله تعالى.

(١) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري ٣٠٨/١١ ومسلم رقم ٢٦٨٣ وتتمه الحديث «ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه»، فقالت عائشة يا رسول الله: كلنا يكره الموت! فقال ﷺ: ليس كذلك - أي ليس الأمر كما فهمت - ولكن المؤمن إذا حضره الموت، بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فأحب لقاء الله فأحب لقاءه.. الخ.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ١٠٧/١٠ ومسلم رقم ٢٦٨٠ وتتمته «فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ ١٠٧ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ من أخبار الغيب الذي لا يحوم حوله شك ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي أوحيناه إليك يا محمد ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي لدى بني يعقوب ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ وهو إلقاءه في غيابة الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ويغنون له الغوائل، والمعنى: إن هذا النبأ غيب، لم تعرفه إلا بالوحي، لأنك لم تحضر إخوة يوسف، حين عزموا على ما همُّوا به، من أن يجعلوه في غيابة الجب، ومن المعلوم أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وإنما حذف لعلمه من آية أخرى كقوله تعالى: ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ﴾ ومكرهم وما دبّروه لا يمكن معرفته إلا بطريق الوحي، وأياً ما كان ففي الآية إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق، وهذه القصة وردت على أحسن ترتيب، وأبين بيان، وأفصح عبارة، فعُلم بذلك أنه وحي، إلهي فهو معجزة له ﷺ قائمة إلى آخر الدهر.

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٠٨ .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ يراد به أهل مكة ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة، الدالة على صدقك ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لإصرارهم على العناد، روي أن اليهود وقریشاً سألوا عن قصة يوسف، ووعدوه أن يسلموا، فلما أخبرهم بها ولم يسلموا، حزن النبي ﷺ لذلك، فنزلت السورة تسلية له ﷺ.

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ١٠٩ .

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغ الوحي والقرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ كما

يفعله حملة الأخبار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ كافة، والجملة كالتعليل لما قبلها، فالمعنى: إِنَّ هذا القرآن يشتمل على المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم في مقابلته مالا، فلو كانوا عقلاء لقبلوا وانتفعوا من فوائده، لكنهم لا يعقلون.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١١٥﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ﴾ كأيّن اسم ككم الخبرية، والمعنى: وكم من الدلائل الدالة على وجود الصانع، وعلمه وحكمته، وكمال قدرته ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كائنة فيهما من الأجرام الفلكية، وما فيها من النجوم، وتغيير أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض من العجائب الفائقة الحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي على الآيات ويشاهدونها، ولا يعبأون بها، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ولا يلتفتون إليها، كأنهم كالأنعام لا يفقهون ولا يسمعون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿١١٦﴾.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وألوهيته ﴿إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره تعالى، وعن ابن عباس أن أهل مكة قالوا: الله ربنا والملائكة بناته، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده، والأصنام شفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده، وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده والمسيح ابن الله، ومنهم عبّاد القبور، والناذرون لها والمنتظرون النفع والضرر منها، وهم اليوم أكثر من الدود.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾.

﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملمهم فلا يفلت منهم أحد ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها، وهو كالتأكيد لاستحقاقهم العذاب.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد وسمى الدين سبيلاً لأنه هو طريق الثواب، وفسرها بقوله: ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ ببيان وحجة واضحة غير عمياء ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي أنا وأتباعي ندعو إلى الله على بصيرة ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أي أنزهه تنزيهاً عن الشركاء فهو سبحانه واحد أحد، فرد صمد ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي وما أنا منهم في وقت من الأوقات، ولا أشرك به أحداً، إنما أنا مسلمٌ موحد.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة، وقيل: المراد نفي استنباء النساء ﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ كما أوحينا إليك ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أي أهل المدن، لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والقسوة، ونقل عن الحسن أنه قال: لم يُبعث رسولٌ من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؟ أي المكذبين للرسول والآيات، فيتعظوا بما حاق بهم من أنواع العذاب ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ الحياة الآخرة ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ

أَتَقُوا ﴿عَنِ الشَّرْكِ وَالْمَعَاصِي﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿فَتَسْتَعْمَلُوا عُقُولَكُمْ لَتَعْرِفُوا خَيْرِيَّةَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، فَتَتَوَسَّلُوا إِلَيْهَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دلٌّ عليه السياق، أي لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء، فإن من قبلهم قد أمهلوا حتى يسر الرسل من النصر عليهم في الدنيا، ويسوا من إيمانهم، لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع ﴿وَضَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بالتخفيف والبناء للمفعول، والظن بمعنى التوهم، والمعنى: أن مدة التكذيب، والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله تعالى، قد تطاولت بالرسل وتمادت، حتى استشعروا القنوط من إيمان أقوامهم، ويسوا من صلاحهم، وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فجأة، أي لما بلغ الحال إلى الحد المذكور، جاءهم نصرنا بغتة ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ إنجاءه، وهم الرسل والمؤمنون بهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولا يرُدُّ بطشنا وعذابنا عن القوم المجرمين إذا نزل بهم، ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد، لمعاصري الرسول ﷺ من الكفرة المجرمين.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي في قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وفي قصة يوسف مع إخوته ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول، المبرأة عن شوائب القدر والكدر، والركون إلى الحسن.

والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، ومعنى الألباب: العقول ﴿مَا كَانَ﴾ أي القرآن الكريم الموحى إليك ﴿حَدِيثًا يُقْتَرَعُ﴾ أي يُخْتَلَقُ كما زعم الكفار ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاج إليه في الدين، أي ما من أمر ديني، إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بالواسطة ﴿وَهْدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنَالُ بها خير الدارين، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يُصَدِّقُونَ تصديقاً معتداً به، وَخُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك، وأما ما عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجدواه، والله الهادي إلى سواء السبيل، لا رب غيره، ولا يُرْجى إلا خيره، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يوسف»

* * *